

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(58-73): تفسير الآية 135، للإنسان مكان ومكانة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 14-04-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم ، اللهم علمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً ، وأرنا الحق حقاً وارزقنا إتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين ، اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم ، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات .

أيها الإخوة الأكارم ، مع الدرس الثامن والخمسين من دروس سورة الأنعام ، ومع الآية الخامسة والثلاثين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(قُلْ يَا قَوْمِ اْعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ

الظَّالِمُونَ)

معنى : اْعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ :

أيها الإخوة ، الله عزوجل يأمر نبيه عليه الصلاة والسلام أن يقول لقومه : قُلْ يَا قَوْمِي ، والقوم كما تعلمون هم الجماعة ، وعادة تطلق هذه الكلمة على جماعة الرجال ، لأنهم مكلفون بالمهمات الجسيمة دون أن تنجرف مع من يقول : إن المجتمع الإسلامي مجتمع ذكوري .
النبي عليه الصلاة والسلام حينما يفتح مكة ، وحينما تدعوه بيوتاتها العريقة إلى أن ينام عندهم ضيفاً ، يقول : انصبوا لي بيتاً عند قبر خديجة ، ونصب لواء النصر أمام قبرها ليعلم العالم كله أن هذه المرأة التي في القبر شريكته في النصر .

الرجل والمرأة متكاملان في المجتمع :

لكن بعض المسلمين الذين هم ضعاف الإيمان ، ومعلوماتهم محدودة ينجرفون مع الطرف الآخر ليتهموا الإسلام بأنه مجتمع ذكوري ، وإذا دُكر الإسلام لا يقفز إلى أذهان هؤلاء إلا أم المرأة ناقصة عقل ودين ، وإلا أن شهادة المرأة بنصف شهادة الرجل .

وقد سُئِلت مرة هذا السؤال من امرأة تحتل منصباً رفيعاً على الهاتف ، قلت لها : مليار و 300 مليون مسلم يدخلون في ثاني أكبر عبادة في الإسلام بشهادة امرأة واحدة ، ما قولكم ؟ فإذا رأيت امرأة الهلال ، وكان الاتفاق بين المسلمين أن يصوموا جميعاً بروية واحد منهم كفت امرأة واحدة بشهادتها أن تدخل جميع المسلمين في ثاني أكبر عبادة في الإسلام .

وقد تلد امرأة من رجل ولدأ ويموت ، إذا بكى قبل أن يموت هناك مسألة ، وإذا مات ، ولم يبكِ مسألة ثانية ، وقد يكون الفرق بمئات الملايين ، لو أن الرجل غني كبير ، من الذي يحسم هذا الأمر ؟ القابلة ، بشهادة امرأة واحدة تتجه مئات الملايين من جهة إلى جهة إذا ، قالت ، إنه بكى قبل أن يموت ، أو لم يبكِ ، حالات رائعة جداً ، لكن ضعاف المؤمنين وضعاف الثقافة الإسلامية الفقهية ينجرفون مع من يتهم الإسلام أنه مجتمع ذكوري .

ألم يستشر النبي عليه الصلاة والسلام أم سلمة في صلح الحديبية ؟ ألم يستجب لمشورتها ؟ وتتجج مشورتها ، ألم يقل الله عز وجل :

(وَأَتْمِرُوا بِبَيْنِكُمْ بِمَعْرُوفٍ)

(سورة الطلاق الآية : 6)

يعني تأمرها وتأمرك ، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام :

((أول من يمسك بحلق الجنة أنا ، فإذا امرأة تنازعني تريد أن تدخل الجنة قبلي قلت : من هذه يا

جبريل ؟ قال : هي امرأة مات زوجها وترك لها أولاداً فأبى الزواج من أجلهم))

(ورد في الأثر)

امرأة تنازع رسول الله دخول الجنة؟! لذلك إن أردت أن تعرف عظمة هذا الدين اجهد في معرفته ، اجلس في مجالس العلم ، اقرأ الكتب الصحيحة .
لذلك القوم هم الجماعة ، وعادت تطلق هذه الكلمة على الرجال ، لأنهم مكلفون بالمهمات العويصة الصعبة ، لأنه :

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى)

(سورة آل عمران الآية: 36)

الرجل والمرأة شتى في الخصائص الفكرية ، والنفسية ، والاجتماعية ، والجسمية :

بمعنى أن خصائص الرجل الفكرية ، والنفسية ، والاجتماعية ، والجسمية ، كمال مطلق للمهمة التي أنيطت به ، وأن خصائص المرأة الفكرية ، والنفسية ، والاجتماعية ، كمال مطلق للمهمة التي أنيطت بها ، المرأة والرجل متكاملان ، وليسا متشابهين .

((عن عروة بن الزبير قال : قالت عائشة : تبارك الذي وسع سمعه كل شيء ، إنني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ، ويخفى علي بعضه ، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي تقول : يا رسول الله ، أكل شبابي ، ونثرت له بطني ، حتى إذا كبرت سني ، وانقطع ولدي ظاهر مني ، اللهم إنني أشكو إليك ، فما برحت حتى نزل جبرائيل بهؤلاء الآيات :
(قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله))

(ابن ماجه بسند صحيح)

هناك أدوار متكاملة بين المرأة والرجل ، لذلك :

(قُلْ يَا قَوْمِ)

هم الجماعة ، وتطلق على جماعة الرجال ، لأن القيامة بالمهمات الصعبة من اختصاص الرجال .

(رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى)

قال الله تعالى :

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ)

(سورة آل عمران الآية : 35)

فأنجبت سيدنا عيسى ، المرأة أحياناً قد تنجب داعية كبيراً ، وقد تنجب عالماً كبيراً ، وقد تنجب مصلحاً اجتماعياً ، كل أعمال ابنها في صحيفتها ، وحينما تقرأ القرآن تجد كلمة قوم ، وتفهم منها أن المقصود بها الرجال ، الدليل :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءِ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ)

(سورة الحجرات الآية : 11)

معنى كلمة القوم ودلالاتها ولوازمها :

فالقوم جماعة الذكور ، والنساء جماعة الإناث ، قال بعضهم : سمي القوم قوماً لأنهم مكلفون بمهمات صعبة ، عليهم الجهاد ، عليهم الكسب ، عليهم العمل القوام ، الإشراف ، أما المرأة دينها أربعة فصول، إذا صلت خمسها ، وصامت شهرها وحفظت نفسها ، وأطاعت زوجها دخلت جنة ربها ، الرجل أمامه مهمات صعبة ، كسب الرزق من أصعب الأشياء ولا سيما في هذه الأيام ، فالرجل له مهمات ، وعليه الجهاد ، وعلى المرأة ما يرتقي إلى مستوى الجهاد قال عليه الصلاة والسلام :

((انصرفي أيتها المرأة ، وأعلمي من وراءك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها وطلبها

مرضاته واتباعها موافقته يعدل الجهاد في سبيل الله))

[عن أسماء بنت يزيد الأنصارية]

إذا القوامه :

(الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ)

(سورة النساء الآية : 34)

معنى قوامون ؛ يعني بينه وبين زوجته درجة واحدة ، بالتعبير العسكري عميد ولواء فقط ، ليس لواء ومجنّد ، درجة واحدة ، والدليل :

(وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ)

(سورة البقرة الآية : 228)

(وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

(سورة البقرة الآية : 228)

هذه حقائق الدين تؤخذ من كتاب الله ، أما من ممارسات شاذة يمارسها أناس جهلاء لا يعرفون حقيقة دينهم هذا شيء آخر ،

(قُلْ يَا قَوْمِ اْعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِكُمْ)

للإنسان مكان :

أنت كائن تشغل حيزاً ، أنت الآن جالس على الأرض ، أعتقد أن ثمة مساحة تقدر بـ 40 سم بـ 40 أنت جالس عليها ، هذا مكانك في الجامع ، ولك مكان في البيت ، ولك مكان في السرير ، ولك مكان في العمل ، ولك مكان في المدرسة ، فالمكان هو الحيز الذي يشغله الإنسان ، لكن بالمناسبة الجماد شيء ، يشغل حيزاً أيضاً ، الآن هذا الكأس أضعه هنا يشغل حيزاً ، الجماد شيء يشغل حيزاً في الفراغ، وله أبعاد ثلاثة ، وله وزن ، الحيوان شيء يشغل حيزاً .

((طوبى لمن له فيها مريض شاة))

من أحاديث قيام الساعة ، الذي له في دمشق مريض شاة طوبى له ، لأن الشام كما قال سيد الأنام :

((هي خير بلاد المسلمين للمسلمين يومئذ))

(ورد في الأثر)

إياك أن تفهم أنها خير البلاد بأسعارها الرخيصة ، وأسعار بيوتها الرخيصة ، لا وبفرص العمل بها ، لا ، هذه مقاييس أخرى ، بمقياس أن هذه البلدة فيها إيمان في أعلى مستوى .

((رأيت عمود الكتاب انتزع من تحت وصادتي ، فأتبعته بصري فإذا هو نور ساطع حتى ظننت أنه قد

هوي به ، فعمد به إلى الشام ، وإني أولت أن الفتن إذا وقعت أن الإيمان بالشام))

[رواه الطبراني عن أبي أمامة]

فعليكم بالشام في آخر الزمان ، وهناك أحاديث كثيرة جداً من هذه الأحاديث :

((الداخِل إليها برضائي ، والخارج منها بسخطي))

(ورد في الأثر)

إذا :

(قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ)

أنت لك مكان ، الجماد له مكان والحيوان ، والنبات له مكان ، النبات شيء يشغل حيزاً في الفراغ ، وله أبعاد ثلاثة ، وله وزن وينمو ، والحيوان شيء يشغل حيزاً في الفراغ ، وله أبعاد ثلاثة ، وله وزن ، وينمو ويتحرك ، والإنسان شيء يشغل حيزاً في الفراغ ، وله أبعاد ثلاثة ، وله وزن ، وينمو ويتحرك ويفكر ، ما لم تفكر فلست من بني البشر ، تنتمي إليهم بالشكل ، لكن ما لم تفكر ، ما لم تبحث عن الحقيقة ، ما لم تتعرف إلى ربك ، ما لم تسع لمرضاته ، فلست من هذا الصنف الذي أكرمه الله أيما إكرام .

(وَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

(سورة الإسراء)

إذا أنت لك مكان ، لك مكان في المسجد ، لك مكان في البيت ، لك مكان في العمل ، لك مكان في المركبة العامة ، لك مكان .

(قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ)

كل إنسان مسؤول أمام الله بحسب مكانه :

كل إنسان له مكان وله إمكانات ، هذا المكان يعطيك إمكانية معينة ، فالمعلم له مكان في الصف ، وإمكانيته خمسين طالباً ، أما المدير فله مكان في الإدارة ، وإمكانيته أن يدير ثلاثين شعبة ، المدرسة بأكملها ، مدير التربية له مكان في مديرية التربية ، مكتب المدير ، لكن يدير محافظة بأكملها ، وزير التربية له مكان في الوزارة ، لكنه يدير التعليم في كل البلاد ، هل هذه الفكرة واضحة ؟

(اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ)

لك مكان ، ومع هذا المكان إمكانات ، والله عزوجل - دققوا في هذا الكلام - كلما ارتفعت مكانتك ، في مجتمعك ازدادت مسؤوليتك عند الله ، فإذا كنت معلماً ، وفي الكتاب نظرية داروين التي تصدم العقيدة الإسلامية في أصلها فأنت لست مؤاخداً ، لكن الذي بيده المناهج هو الذي يحاسب ، فكلما ارتفعت مكانتك عند الناس ازدادت مسؤوليتك عند الله .

إذاً قد يترنم أحياناً الإنسان بكلمة : أنا مسؤول كبير ، ولو دقق في معناها لارتعدت فرائصه من الخوف ، مسؤول كبير ، سوف تُسأل عن كل شيء من دون استثناء .

(فَوْرَبِّكَ لِنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر)

سيدنا عمر قال : << والله لو تعثرت بغلة في العراق لحاسبني الله عنها >> ، لو تعثرت هو في المدينة ، وفي العراق حفرة في الطريق لم تردم فتعثرت بها بغلة لحاسبني الله عنها ، لم لم تصلح الطريق لها يا عمر ، لأن معك إمكانيات .

سيدنا عمر بن عبد العزيز دخلت عليه زوجته فاطمة بنت عبد الملك ، رأته يبكي ، قالت له : << مالك تبكي ؟ قال : دعيني وشأني يا فاطمة ، فلما ألحت عليه قال : ويحك يا فاطمة ، إني وليت أمر هذه الأمة ، فرأيت الفقير الجائع ، والمريض الضائع ، والشيخ الكبير ، والأرملة الوحيدة ، وللعيال الكثير والرزق القليل ، وابن السبيل ، والمسجون والمحبوس ، والمظلوم ، فعلمت أن الله سيسألني عنهم جميعاً ، وأن خصمي دونهم رسول الله ، فخفت ألا تثبت حجتي فلهذا أبكي >> .

لذلك بطولتك أنا أعني ما أقول ، افعل ما تشاء ، لكن بطولتك تقتضي أن تهياً جواباً للواحد القهار يوم القيامة ، عن كل عمل تعلمه ، عن كل عطاء ، عن كل منع ، عن كل صلة ، عن كل قطيعة ، عن كل غضب ، عن كل رضى .

مرة استنصحتني موظف بالتموين كبير قال لي : ماذا افعل ؟ أنا فاجأته بنصيحة غير متوقعة مني إطلاقاً ، قلت له : بالغ في كتابة الضبوط ، وزج الناس في السجون ، قال : هكذا تقول أنت ؟! قلت : نعم ، لكنك إذا كنت بطلاً هبى الله عزوجل يوم القيامة جواباً عن كل ضبط تكتبه ، البطولة أن تهياً الجواب .

يقول لي أحياناً أحد الإخوة : لي الحق أن أهب أحد أولادي ؟ أقول له : لك الحق ، هذا من حق الأب ، لكن أحياناً يهب الأب ابناً من زوجة جديدة يتملق لها ، لفارق السن الكبير الذي بينه وبينها ، يتملق بأن يكتب لأحد أولاهما من زوج آخر بيت ، وقد يحرم زوجته القديمة التي عاشت معه السراء والضراء ، هنا تحاسب ، أما الذي عنده بنت فاتها قطار الزواج ، وأخذ لها بيت بحياته ، والبيت تتميز به عن كل أخواتها ، كل أخواتها متزوجات ولهن أزواج أغنياء ، هذه فاتها قطار الزواج ، لئلا تكون خادمة عند أخيها ، لئلا تُظلم عند أخيها الأب هياً لها بيتاً تسكنه عزيزة كريمة ، معه جواب الله عزوجل .
لذلك :

(يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ)

أنت لك مكان ومع هذا المكان إمكانيات فأحياناً الإنسان - دققوا - بجرة قلم يحق حقاً ، ويبطل باطلاً ،
يقر معروفاً ، ويزيل منكراً ، يقرب مخلصاً نافعاً ، ناصحاً مخلصاً ويبعد فاجراً منافقاً ، بتوقيع .

(قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ)

((البر لا يبلى ، والذنب لا ينسى ، والديان لا يموت ، اعمل كما شئت ، كما تدين تدان))

[الجامع الصغير عن أبي قلابة بسند ضعيف]

أيها الإخوة ، شيء آخر ،

(اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ)

الآن نحن سبحان الله لجهل في معظم المسلمين يستوردون مشكلات من الماضي ، والجواب الحاسم :

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَآ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة البقرة)

تسخير الإمكانيات للخلق بإخلاص من غير غش وخداع :

أنت اعمل على مكانتك الله أقامك طبيب ، إياك أن تضع المال قبلة لك ، إياك أن توهم المرضى بأن
مرضهم كبير ، ويحتاج إلى تحليلات كثيرة ، أنت محام إياك أن توهم موكلك أن القضية تحتاج إلى
سنوات وسنوات ، وقد تخسر هذا البيت ، لكنني إذا أكرمتني أعطيتني ما أريد أخذه لك من خصمك ،
والأمر ليس كذلك ، إن كنت مدرساً إياك أن تجري امتحان صعب جداً ، وتعطي الطلاب أصفارا كي
يلجئوا إليك بدرس خاص ، كل إنسان عنده إمكانيات ، إمكانيات علمية ، مالية ، إدارية أحياناً ،

(قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

إخوانا البطولة أن تضحك آخراً ، الناس أحياناً يرقصون في الدنيا ، تأتيهم الدنيا والدنيا خضرة نضرة ،
لكن سمها في دسمها ، البطولة لا أن تغتر في مظاهر الدنيا البطولة أن تضحك آخراً ، لا أن تضحك
أولاً ، والدليل :

أن الطفل حينما يولد كل من حوله يضحك ، وهو يبكي وحده ، فإذا وافته المنية كل من حوله يبكي ،
فإذا كان بطلاً يضحك وحده .

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة الأعراف)

البطولة من يضحك آخراً ، قال تعالى :

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

(سورة المطففين)

أما في الدنيا :

(إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ
سَخِرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ)
(سورة المؤمنون)

أيها الإخوة :

(قُلْ يَا قَوْمِ اْعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

ظهور الفائز والخاسر يوم القيامة :

هذه سوف تعلمون فيها تهديد ، غداً نرى من الراح ، غداً نرى من الفالح ، غداً نرى من الناجح غداً نرى من الذكي ، غداً نرى من العاقل .

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء ، ودار ترح لا دار فرح فمن عرفها لم يفرح لرخاء ، ولم يحزن لشدة ، ألا وإن الله تعالى خلق الدنيا دار بلوى ، والآخرة دار عقبي فجعل بلوى الدنيا لثواب الآخرة ، وثواب الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً ، فيأخذ ويبتلي ليجزي))

[رواه الديلمي عن ابن عمر]

الآن :

(قُلْ يَا قَوْمِ اْعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ)

الطفل أحياناً بالفطرة يعلم أن المكان الواحد لا يتسع لشخصين ، فإن أراد أن يجلس مكان أخيه أول عمل يقوم به ينزله من على الكرسي ، كل واحد له مكانة ، بعد هذا قال الله عزوجل :

(وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأنعام الآية : 132)

للإنسان مكانة في الدنيا :

عند الدولة ثلاثون درجة ، عشر مراتب ، وكل مرتبة ثلاث درجات ، المليون موظف يجب أن تكون في أحد هذه المراتب ، كل واحد له مرتبة ، لكن الله عزوجل إذا كان في الأرض ستة مليون آلاف إنسان فعنده ستة آلاف مليون مرتبة .

(وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا)

عملك يقيم بأدق التفاصيل ، الله عزوجل يقدر عملك ، يقدر حجم عملك ، يقدر مقدار التضحية من أجل أنك فعلت هذا ، يقدر مقدار التعب والجهد ، يقدر مقدار إغراء الصوارف ، يقدر مقدار العقبات الكأداء التي أمامك .

(وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)

(سورة المزمل الآية : 20)

لذلك كل إنسان له عند الله مرتبة .

(وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا)

الشيء الواحد له موقع واحد ، امسك بفاوورة ، واغمسها بالماء كي تمتلئ ، هل يدخل الماء ؟ لا ، لا يدخل حتى يخرج الهواء ، ففقاغات الهواء تخرج أولاً ، ثم يدخل الماء ثانياً ، لذلك :

(أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ)

(سورة النساء الآية : 78)

في أي مكان كنت ، وفي أي مكانة كنت ، لو كنت رئيس وزارة ، وهدمت سبعين ألف بيت ، بثانية تغدو في قبضة الله ، ثانية واحدة ، ولأن ما مات بعد ، وأناس يقولون : الله يطيل عمره ، لا أعلم والله ، في أية مكانة كنت ، وفي مكان كنت الإنسان في قبضة الله ، بثانية يلغى كل شيء .

بالمناسبة ، نحن كلنا سوف نموت ، لكن حياتك ، ومكانتك ، وطلاقة لسانك وهيمنتك ، وحجمك المالي، ومعارفك ، وشبكة علاقتك ، وقوة شخصيتك منوطة بقطر شريانك الأبهري وملي وربع ، كل قيمتك منوطة بسيولة دمك ، فإذا تجمد الدم في بعض شرايين المخ فقطت الذاكرة كلها ، كل مكانتك منوطة بنمو خلاياك ، فإذا تفلت النمو بأي مكان انتهى الإنسان ، لا تقل أنا ، قل الله .

(قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ)

من هو الفائز ، من هو الناجح ، يقول الله عزوجل لنا في القرآن الكريم :

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

(سورة المؤمنون)

لو أردت أن تستخدم كلمة :

(قَدْ أَفْلَحَ)

الآن هناك أراض تضاعف ثمنها خمسة أضعاف ، أخذ أرضاً بمليونين صار ثمنها عشرة ملايين ، هل تقول لصاحبها : هنيئاً لك ؟ طبعاً جاءت أرباح فجأة من دون تعب ، يا ترى قد أفلح الراحون ، قد أفلح المتزوجون ، قد أفلح أصحاب المناصب العليا ، الله قال :

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

فقط

وقال :

(فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأَدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة آل عمران)

الذي حصله الإنسان في عمر مديد يمكن أن يخسره في ثانية واحدة ، يكون شخصاً مهماً فإذا به خبر ، أربعة أيام بعد هذا يعتم عليه ، لم يعد هناك ولا خبر ، أين الصولة ، والدولة ، والقوة ، والسلطة ، والطغيان ، والقهر ، والقتل والهدم ، إلى أين ؟

(وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا)

(سورة النساء)

أيها الإخوة الكرام :

(قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ

الظَّالِمُونَ)

الظالم غير مفلح أبدا :

أولاً : لا يفلحون الذين ظلموا أنفسهم فلم يعرفوها بربها ، ولم يحملوها على طاعته ، ولم يتقربوا من الله عزوجل بالعمل الصالح ، هؤلاء ظلموا أنفسهم ، وأشد أنواع الظلم أن يظلم الإنسان نفسه .
للتقريب :

لو أعطينا إنسانا شيكا بمليون دولار ، 52 مليون ليرة ، والشيك موضوع على ظهره ، يظهر ورقة بيضاء ، فأنت اضطررت أن تجري عملية حسابية بسيطة ، رقمين برقمين ، ضربتهم على هذه الورقة البيضاء ، فلما انتهت مزقته ، وألقيته في المهملات ، وهذا الشيك لا يعوض ، ومئة مليون دولار ، أنت انتفعت بالشيك ، استخدمته كورقة ، لكن بين أن تستخدمه كورقة وأن تستخدمه كقيمة نقدية مئة مليون دولار كم تشعر بالخسارة ؟ كم تشعر بالندم ؟

هذا الذي يشتري بآيات الله ثمناً قليلاً ، هذا الذي يتاجر في الدين ، هذا الذي يستخدم الدين للدنيا ، الإمام الشافعي يقول : " والله لأن أرتزق بالرقص أهون من أن أرتزق بالدين " ، الدين دين ، " إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم " .

((يا ابن عمر " دينك " دينك " إنما هو لحمك ودمك ، فانظر عمن تأخذ ، خذ الدين عن الذين

استقاموا ، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[روي عن ابن عمر]

لا تتبع الرخص والفتاوى الشاذة :

إخواننا الكرام ، أنا ألاحظ ملاحظة عجيبة أن معظم الناس يتكثرون على فتوى ، فتوى من أحد علماء مصر بالسماح بإيداع المال بالبنوك بفائدة وسماها عائدة ، ومرة أنا سُئِلت سؤالا على الهواء في إذاعة بدولة مجاورة : ما قولك في هذه الفتوى ؟ قلت : لا تجد عالماً من علماء المسلمين يفتي بهذه الفتوى ، فذلك العبرة لا أن تتكئ على فتوى ، لو أنك التقيت مع سيد الخلق ، وحبیب الحق ، وسألته سؤالاً وكنت طليق اللسان ، أوتيت حجة وبرهان أوتيت لحناً في القول ، يقول عليه الصلاة والسلام :

((وَلَعَلَّ بَعْضُكُمُ الْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَإِنَّمَا أَقْضِي بَيْنَكُمْ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئاً فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ))

[مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ]

إنك لا تنجو من عذاب الله لو انتزعت فتوى من فم سيد الخلق ، إذا لا ينجينا إلا أن نطيع الله عزوجل .

اعملوا على مكائتكم تهديد ووعيد :

أيها الإخوة .

(اعْمَلُوا عَلَى مَكَائِتِكُمْ)

يا من عارضتم النبي ، يا من تأمرتم على قتله ، ثم أخرجتموه ، ثم نكلتم بأصحابه ، يا من تفننتم بإيذانه .

(اعْمَلُوا عَلَى مَكَائِتِكُمْ)

هناك يوم آخر تسوى في الحسابات ، والله الذي لا إله إلا هو لولا أن هناك يوماً آخر تسوى فيه الحسابات ، ويؤخذ للمظلوم من الظالم لكانت الحياة لا تطاق ، هناك طغاة ، 10 % من سكان الأرض يملكون 90% من ثرواتها ، 10% و90% يأكلون الفئات ، مع القهر ، والسيطرة ، والكذب ، والدجل ، والتهديد ، والوعيد ، والمفارقات حادة ، دولة عندها من رأس نووي لا تُساءل ، ولا تُحاسب ، تهدد بها أمن المنطقة ، دولة ثانية بأهداف سلمية تقوم الدنيا ولا تقعد ، والحديث عن الخيار العسكري ، من قال ، إن السلاح النووي يجب ألا يمتلكه المسلمون ؟

فيا أيها الإخوة ، هذا الذي يتجبر ، ويكيل بمكايل عديدة جداً ، ويبني مجده على أنقاض الآخرين ، يبني غناه على فقرهم ، يبني عزه على ذلهم ، يبني حياته على موتهم هذا قال الله عنهم :

(قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَائِتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فُسُوفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ)

(الظَّالِمُونَ)

الظلم ظلّمت يوم القيامة .

والله سمعت قصة ، وليس من عادتي أن أروي مناماً إطلافاً ، لكن ديننا دين حقائق ، دين نصوص ، دين أدلة ، لكن المنام سأرويّه تجاوزاً ، لأنه يستأنس به ، امرأة عندها أولاد ، وتربي أولادها من زوجها من زوجة مطلقة ، إذا سقتهم الحليب تسقي أولادها كأس حليب كامل الدسم ، وتسقي أولاد زوجها نصف كأس حليب ممزوج بالماء ، لها قريب يحبها حباً جماً ، توفيت ، يراها في المنام أنها تحترق ، أقسم بالله رآها أكثر من 8 سنوات وهي تحترق ، إلى أن قالت له مرة ، وكأنت بحالة طيبة ، يا بني لقد فُرج عني بسبب ، قالت له ، الحليب فقط ، فسأل ، دقق ، بحث إلى أن وصل إلى هذه القصة . من السهل أن تطعمي ابنك حليباً كامل الدسم ، وابن زوجك نصف كأس حليب ممزوج بالماء ،

(فَوْرَبِّكَ لِنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

صحابي خاض مع النبي معارك ، وتوفاه الله ، فجاء ليصلي عليه النبي قال :

((أعلية دين قالوا : نعم ، قال : صلوا على صاحبكم))

(أبو داود عن جابر)

كم من إنسان بهذه البلدة مغتصب مالا ، ولا يدفع الدين ، أعتقد أنه ما من تاجر إلا عنده مبلغ فلكي ديونا مينة ، اشترت بضاعة ، وبعثها وربحت ، يماطل ، بعد هذا يمل صاحب الدين ، لذلك قالوا : الدين هالك إلا ما رده الله ، وكم من إنسان يأكل أموال الناس بالباطل ؟ كم من إنسان يعتدي على أعراض الآخرين ؟ كم من إنسان يوقع بين الناس كي يقوى عليهم ، فانه عزوجل كبير . والله أيها الإخوة ، حينما تعرف عدل الله عزوجل يمكن أن ترتعد مفاصلك .

هناك قاض في العهد الأموي طرق بابيه ، وجاء خادمه يقول : إن في الباب رجلاً قدم لك هذا الطبق من الرطب ، والقاضي معروف بالمدينة ، أنه يحب الرطب في بواكيره ، والفاكهة بأولها غالية جداً ، عشرة أضعاف ثمنها ، فقال : من قدمه ؟ قال : رجل في الباب ، قال : صفه لي وصفه قال له : كيت وكيت ، فعرفه أحد المتخاصمين عنده ، قال له : رد الطبق ، بعد أيام قابل الخليفة ، وطلب إعفاه من هذا المنصب ، قال له : لم ؟ قال له : والله طرق بابي إنسان ، وقدم لي طبق من الرطب ، فلما علمت أن الذي قدمه أحد المتخاصمين عندي رددته ، لكنني في اليوم التالي تمنيت أن يكون الحق مع الذي قدم هذا الطبق ، إذا أنا لست عادلاً ، أعفيني من هذا المنصب .

هكذا الحساب يوم القيامة .

(فَوْرَبِّكَ لِنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

اقرأ الآية .

أعرابي لا يقرأ ولا يكتب جاء النبي الكريم ، قال له : عطني ولا تطل ، يريد كلمة مختصرة ، فتلا عليه قوله تعالى :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)

(سورة الزلزلة)

قال : كُفَيْت ، فقال عليه الصلاة والسلام : فقه الرجل .

حينما تشعر أن الله سيحاسبك عن كل شيء ، وأكبر وهم أيها الإخوة أن الإنسان يتوهم بجهله بأصول الدين أنه إذا ذهب إلى بيت الله الحرام يعود من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، وإذا صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر الله له ما تقدم من ذنبه ، ويغيب عنه كثيراً أن هذه الذنوب التي تغفر في الحج وفي العمرة ، وفي الصيام والقيام ، وبعد التوبة ما كان بينك وبين الله فقط ، أما ما كان بينك وبين العباد لا تغفر إلا بالأداء أو المسامحة ، لذلك قال تعالى :

(يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ)

(سورة الأحقاف الآية : 31)

(مِنْ) ، يغفر لكم بعض ذنوبكم ، ماذا يملك الإنسان ؟ أعلى شيء يملكه حياته ، فالشهيد قدم حياته في سبيل الله ، يقول عليه الصلاة والسلام :

((يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين))

[أخرجه أحمد في مسنده وصحيح مسلم عن ابن عمرو]

تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ

بقي شيء واحد أيها الإخوة في هذه الآية ، وهو أنه حينما قال الله عزوجل :

(قُلْ يَا قَوْمِ اْعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ)

تكون له ، يقول الله عزوجل :

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

(سورة البقرة الآية : 286)

فالخير يعبر عنه بله ، والشهر يعبر عنه بعليه .

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

(سورة التوبة الآية : 51)

ليس علينا ، لذلك الذي عرف الله ، وعرف الطريق إليه ، وتقرب إليه بالأعمال الصالحة له عاقبة الدار .

(فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

استخدم عقلك قبل فوات الأوان :

فالبطولة ما سيكون ، لذلك ما هو العقل ؟ أن تصل إلى الشيء قبل أن تصل إليه ، والمثل الذي أرويه كثيراً :

أن إنسانا سافر إلى حمص ، وجد لوحة صغيرة لا تزيد على هذه الورقة : الطريق إلى حمص في الشتاء مغلق في النبك بسبب تراكم الثلوج ، هذه الورقة تجعله يعود إلى رشده ، أما الدابة إذا مشت على هذا الطريق فلا تقف إلا عند الثلج ، ما الذي حكم الإنسان العاقل ؟ عقله والنص ، ما الذي حكم الدابة ؟ الواقع .

فالإنسان دائماً يندم عند الموت :

(يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

(سورة الفجر)

الموت معروف ، والقرآن بين يديك ، والأحاديث كثيرة ، لم تستخدم عقلك لمعرفة الحق من الباطل ، لذلك الإنسان يوم القيامة يرى مكانه في النار ، فيصيح صيحة لو سمعها أهل الأرض لصعقوا من شدة الندم ، وفي بعض الآثار بالجامع الصغير :

((إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول يا رب لإرسالك بي إلى النار أهون عليّ مما ألقى ،

وإنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب))

(الجامع الصغير عن جابر بسند ضعيف)

فلئلا نندم أتمنى على كل أخ كريم إن رأى أن الله يتابعه فليفرح .

((وعزتي وجلالي لا أقبض عبد المؤمن وأنا أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده ، أو إقتاراً في رزقه ، أو مصيبة في ماله أو ولده ، حتى أبلغ منه مثل الذر ، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

(ورد في الأثر)

الخيارات بين أيدينا :

والخيارات بين أيدينا ، طريق الحق واضح والباطل واضح ، الخير واضح والشر واضح ، وكان قبل خمسين سنة في أبيض وأسود ورمادي بينهما ، الآن اختفى الرمادي ، في أبيض وأسود ، مؤمن أو

كافر ، فتاة محجبة حافظة لكتاب الله ، أو متقلبة محسن أو مسيء ، منصف أو ظالم ، رحيم أو قاسي ،
مخلص أو خائن ، الآن هناك حالات والدليل :

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص الآية : 50)

والحمد لله رب العالمين